العناية بمخطوطات خزانة القرويين

مظهر من مظاهر العناية بالتراث الفكري الاسلامي عبر العصور

محمد بن عبد العزيز الدباغ

إن الحضارة الإنسانية مرتبطة تمام الارتباط بالمجهودات البشرية الكبرى التي قام بها الذين سبقونا إلى الوجود وإن أعمالهم المختلفة قد أثرت في التطور وعملت على إثراء الفكر وعلى إغناء الإنسان بما مهدت له من وسائل التنمية وسبل الحياة المادية والمعنوية .

ولقد ساهمت أمم مختلفة في التطور البشري وفي الرقي العقلي وفي التهذيب النفسي حسب القدرات التي كانت لها . وكان الإهتمام موجهاً إلى اكتشاف الطبيعة من جهة وإلى تحوير الجانب الخلقي من جهة أخرى . وجاء الإسلام فكان خير معين على نشر العلم وضم شتات البشرية وتقوية الإرادة المنبثقة من قوة العقيدة ومن التشريع الإسلامي ومن تعاليمه الحريصة على التطلع إلى آفاق الكون والدافعة إلى طلب العلم من المهد إلى اللحد .

ومنذ ذلك الحين تفتق ذهن الذين دانوا بالإسلام جميعاً ، من العرب وغيرهم . وأطلوا إطلالة على ما كان من ثقافة وحضارة في العالم وحاولوا أن يربطوه بالنصوص التشريعية الواردة في القرآن وفي السنة واجتهدوا فيما لم يجدوا فيه نصاً وحرصوا تمام الحرص على أن يسايروا الحياة بكل ملابساتها ، ورأوا أن السبيل الوحيد لإقرار الحضارة لا يتحقق إلا عن طريق العلم بكل صنوفه . ولذلك نجد المسلمين في مختلف بقاع الأرض عنوا بالثقافة وتوجهوا إلى العلم يدرسونه بكل دقة ويحققون قواعده بكل جهد لا يفرقون في ذلك بين العلوم الدينية والدنيوية . ودفعهم الحرص على المعرفة إلى أن يترجموا عدداً من الكتب التي كانت معروفة عند اليونان والرومان والفرس والهند والصين أو عند غير هؤلاء من الذين كانت لهم كتب في العالم .

وقويت هذه الإنتفاضة العلمية في العهد العباسي بالمشرق وفي عهد الوجود الإسلامي بالأندلس كما استمرت مع الوجود الإسلامي فيما بعد . وتداخلت العلاقات بين المسلمين وكان العلم أقوى رابط يجمع بينهم فكانت أواصره أقوى من الأواصر السياسية وكانت مجالاته الفكرية تبعث على البحث والرحلة حتى أصبحت كتب الطبقات عند المسلمين من أشهر الكتب الصالحة لإبراز العلاقات بين رجال الفكر في العالم الإسلامي ولإظهار النشاط الثقافي السائد في كل أقليم .

وتنوعت أوجه النشاط في تآليف تتعلق بالدراسات القرآنية تفسيراً وتحليلاً وبياناً ولغة إلى دراسات في الحديث متناً وسنداً وصحة وضعفاً إلى تآليف في السيرة والسير والمغازي إلى كتب تتصل بالطب والفلك والفلسفة والهندسة إلى غير ذلك من أنواع البحث في مختلف الفنون .

وازدهرت الصناعات التي لها ارتباط بالكتب كصناعة الورق وتسفير الكتب ، وتباهى الناس بالقدرة على النسخ وتجميل الخط وبالإعتناء بالتصوير والتزيين والتلوين .

وارتبط النسخ بالتوثيق فكانت بعض الكتب تحمل توقيع مؤلفيها

،و توقيع رواتها وكانت بعض الواجهات تزدان بخطوط الذين ملكوها أو درسوها أو حبسوها أو صححوها فأصبحت تلك الخطوط إلى الآن رصيداً حضارياً يضاف إلى الرصيد الفكري الذي تحتوي عليه تلك الكتب .

ورغم ظهور الطباعة فإن المخطوطات لم تفقد قيمتها لأنها تعتبر السند الفكري عند الأمم خصوصاً إذا كانت تلك المخطوطات موثقة ومصححة .

وحيث أن الحضارة الإسلامية كانت من أزهى الحضارات التي احتفظت بالتراث العلمي وساهمت في تطوره وكانت عالمية في مبادئها وفي رفعتها . فإن ما أضفته من تنوير للعالم في عصر النهضة لا يخفى على الدارسين ولا يتنكر له إلا جاهل أو جاحد . ومما يدل على ذلك اعتناء كثير من الدول الاوروبية بجمع الكتب العربية ودراستها وإقامة المعارض الكبرى لها في الخزانات العامة والخاصة ، الشيء الذي ينبهر أمامه الإنسان حين زيارته لهذه الخزانات في فرنسا وإسبانيا وألمانيا وإنكلترا وغيرها من الدول الأجنبية . فهم قد كلفوا بها ودرسوها وتكونت جماعة منهم للتعريف بمضامينها ولاستغلال ما بها من علوم في شتى المجالات ؛ وازدهرت بسبب ذلك النهضة الاستشراقية وتعددت الوجهات التي يعنى بها المستشرقون . فهناك من توجه إلى دراسة تاريخ العلوم الطبيعية بكل ما يتصل بها وهناك من توجه إلى دراسة الرياضيات أو دراسة الفقه ومقابلته بالقوانين الوضعية وهناك من توجهت عنايته إلى دراسة كتب التاريخ والسير والمغازي وكتب الجغرافية ومعرفة ما يتعلق بالمسالك والممالك وتتبع الرحلات وما يمكن أن تضفيه على الحضارة الإنسانية من فضل كبير .

وفي الواقع كانت أسباب الإعتناء مختلفة . فمن الدارسين من يرى أنها كانت خالصة للعلم ومنهم من يرى أنها كانت مقصودة لأغراض سياسية محضة لأن الاطلاع على ثقافة المسلمين وعلى ما تتضمنه كتبهم كان يساعد على تعرّفهم ويمهد لاحتلال أراضيهم .

ونحن في الواقع لا نستطيع تعميم الحكم على جميع المستشرقين . فمنهم من ظهرت آثاره العملية بعد البحث والتنقيب وبعد ربط نتائجه باحداث التاريخ . لهذا ينبغي أن ندرس بدورنا ما بلغ إليه هؤلاء على ضوء لا يتنافى مع حضارتنا ولا مع كياننا لنرسم الطريق من جديد أمام أجيالنا الناشئة التي يجب أن تعبأ بحسن الأخلاق وبقوة الإرادة المتوجهة إلى المعرفة وحب الاستطلاع ؛ ومن ضمن ذلك توجه عنايتهم إلى دراسة تراثنا والتفتح على ما في الخزانات العلمية من المصادر المتعلقة بهذا التراث وخصوصاً منها المصادر الأصلية التي ما زالت مخطوطة في كثير من الآفاق .

إن الكتب المخطوطة لم تكن إقليمية في تداولها . فقد انتشرت في كل أنحاء العالم وانتقلت من بلد إلى بلد ومن دولة إلى أخرى بسرعة فائقة فكانت من أسباب خلق التواصل بين أبناء الإنسان . ولهذا قلما تجد خزانة من الخزانات في الدنيا إلا وتجد فيها بعض الكتب الواردة من آفاق بعيدة : فهذه كتب ألفت في خراسان أو نسخت في الهند ستجدها في خزانة من خزانات المغرب وفي الوقت ذاته تجد كتباً مؤلفة في المغرب أو منسوخة في الأندلس وهي محفوظة في خزانة من خزانات المشرق أو خزانات أوروبا . وإن نظرة في الكشوف المتعلقة بهذه الكتب وفي السجلات الداخلية لكل خزانة لتدل على هذا التداخل الموجود سواء بالنسبة إلى الأقاليم أو بالنسبة إلى أزمنة التأليف . إلا أن الأمر في الحقيقة ينبغي أن يتجاوز الاطلاع على الكشوف إلى الاطلاع على الكتب ذاتها . فإن عدداً منها قد اخترمته الأرضة وقضت عليها خصوصاً في بعض الخزانات التي تفقد الوسائل الكافية للابقاء على هاته الكتب المنهارة المحتاجة إلى العناية والوقاية . فكم من كتاب أصبح مشلول الافادة مبعثر الأوراق ممزق الأجزاء يستنجد بأهل المعرفة ويرجو منهم أن يعالجوه وأن يبحثوا عن وسائل احيائه من جديد .

إن الإنسان مسؤول عن انقاذ ما يمكن إنقاذه من هاته الكتب لأن الكتب كالناس ، ومن أهمل مشرفاً على الهلاك حتى هلك كان كمن سعى في قتله أو ساعد على تنفيذ الإعدام فيه من غير حق . فكما أن للإنسان حرمة لا تسمح بقتله ظلماً إذا مرض فكذلك الكتب لا حق لنا في أن ندعه للتلاشي والضياع دون أن نحرص على بعثه من جديد وعلى إعادة الحياة إليه بكل ما نقدر عليه من وسائل العصر .

إن مسؤولية إنقاذ الكتب مسؤولية إنسانية تفرضها الاخلاق الدولية ويلزمها الواجب وتدعو إليها الضرورة . فقد نجد من خلال ما تبقى فكرة تحيي ضميراً أو تعبد طريقاً للخير أو ترشد الإنسان إلى ما يرجعه إلى صوابه . فقد ضقنا بما نجده من ظلم بعض الدول لغيرها أو من ظلم بعض أفراد الإنسان لغيرهم مع أن الواجب يدعو إلى خلق وسائل التعاون والترابط . وفي كتبنا العربية والإسلامية ما يغني في هذا الباب . فعلى كل الهيئات الثقافية العالمية والاقليمية أن تعمل على إنقاذ ما يمكن إنقاذه من هاته الكتب التي قد تساهم من جديد في تنوير الطريق أمام الإنسان الحائر . أليست نتاجاً عقلياً جباراً لكثير من العقول المفكرة في التاريخ ؟ وإن حوارها معنا لحوار بعيد عن الأغراض منزه عن الانتفاعية . فما أعظم الذين يحرصون على الاقتباس من عقول نيرة ونفوس نزيهة غير قادرة على التملق والخداع تأخذ منها ما ينفع وتدع منها ما يضر دون أن تجد وجهاً عبوساً أو حقداً مندفعاً أو دسيسة مسمومة !

هذا وإن الحرص على إحياء التراث ليس عملاً مقصوداً لذاته وإنما الغرض منه القدرة على تعرّف ما كان عليه الأجداد لاستغلال ما هو صالح وترك ما لا فائدة فيه مع تعميم ما هو صالح على جميع الأمم لأن الرصيد الحضاري الذي ينتج عن عباقرة أمة ما ليس ملكاً لها وحدها بل يجب نشره وإفادة كل المحتاجين والمتعطشين إليه .

إن إحياء التراث وحفظ مضامينه لا تكون من ورائه فائدة إلا إذا كان الغرض من هذا الإحياء التفكير في المصلحة الإنسانية الكبرى. ونحن على يقين بأنّ ما تتضمنه الكتب من محتويات لا يعود نفعه على الذين ألفوه أو على عصورهم فقط وإنما يعود ذلك على المعاصرين وعلى الذين يأتون في المستقبل خصوصاً إذا كانت تلك الكتب المحياة تستمد قوتها من قوة مؤلفيها وحصانتها من أخلاقهم وسلوكهم . ولهذا كان من الضروري أن تتوجه عناية أهل الاختصاص إلى دراسة ما يتعلق باختصاصاتهم مع التمكن من معرفة أحوال الثقافة المعاصرة ليستطيع كل من ينشر كتاباً من التراث أن يوازن بين ما كان عليه العلم وبين ما وصل إليه . وبذلك تكون مساهمته الاحيائية ظاهرة استمرارية لتاريخ العلوم وعملية تركيبة يمهد بها بتحقيقاته وتعليقاته مجال البحث للذين يأتون من بعد ، وبذلك لا تبقى مهمة المثقف سلبية مقتصرة على جانب ترددادي محض ينحصر في اجترار ما كان وإنما يكون عمله إحياء وتجديداً وتطلعاً إلى مستقبل أزهى وأزهر وأنضع وأنضر .

إن هذه العملية مجهود جبار لا يعرف قيمته إلا رجال البحث العلمي الذين يوجهون عنايتهم إلى كل ما يتصل بالموضوع الذي يختارونه . وهي عملية تأتي بعد العملية التقنية الأولى المتعلقة بحفظ التراث من الضياع المادي . ولهذا كان من الواجب أن تتعاون الهيئات المكلفة بالمحافظة على حماية الكتب من التلاشي والاندثار مع الهيئات المكلفة بالدراسة والنشر والتعريف بالمحتويات ومن ثم تصبح المسؤولية مشتركة بين الطائفتين معاً لا فرق في ذلك بين الهيئات التقنية التي تعمل بوسائلها الخاصة على الابقاء على هاته الكتب في وضع صالح للانتفاع بها وبين الذين يتوجهون إلى حل رموزها وفك غامضها وإبراز معانيها وشرح محتوياتها . فالأولون يمهدون السبيل للدارسين والآخرون يحللون ويوازنون ويبينون ما لهاته الكتب من قيمة في تاريخ العلم أو تاريخ الأدب .

ومن هذا المنطلق نعلم أن إحياء التراث يحتاج إلى أمرين :

الأمر الأول يتعلق بالجانب المادي المحض وهو يتوقف على إعتمادات كافية لتجهيز الخزانات بكل الوسائل التي من شأنها أن تحافظ على استمرارية الكتب : من أدوية مضادة للتلاشي ومن آلات مساعدة ومن مختصين في حماية الأوراق من هجوم السوس والأرضة ومن آلات للتصوير تعمل على إيجاد نسخ تقوم مقام النسخ الأصلية في التداول سواء أكان ذلك التصوير عادياً أم كان فليمات أم جذيذات ، مع الحرص على إعداد المقرئات الصالحة لاستغلال هاته المصورات وإعداد القاعات الكافية للمطالعة .

الأمر الثاني يتعلق بالجانب العلمي وهنا يجب أن يتدخل العلماء بثقلهم وأن يجودوا بأوقاتهم للبحث والتنقيب وأن يوجهوا طلبتهم إلى إحياء جانب من هذا التراث تحت إشرافهم وتوجيههم ؛ وأقترح في هذا الباب إيجاد أنواع من الوظائف العلمية داخل الخزانات يكون الهدف منها إرشاد الزائرين والباحثين ودراسة بعض المخطوطات دراسة عميقة والعمل على التعريف بها تعريفاً علمياً يستغرق الوقت الكافي ، وأن يقوموا بمحاضرات وندوات محلية واقليمية ودولية ، وأن تكون مهمتهم خلق التعاون والتواصل بين الخزانات التي هم فيها وبين الخزانات الأخرى سواء أكانت منتمية إلى دولتهم أم إلى دول أخرى .

ولا شك أن هذا الاقتراح يحتاج إلى إمكانيات مادية وإلى مساعدات عملية قد لا تكون ميسرة عند بعض الدول النامية . ولكنها رغم ذلك يجب عليها أن تدخلها في أسس التنمية وأن تعمل قدر الامكان على تطبيق ما يمكن تطبيقه من ذلك .

ويمكن استغلال المجهود العلمي من خلال الهيئات الثقافية والمجالس العلمية والجمعيات الدولية التي تعنى بإحياء الفكر ونشر أصوله بين سكان العالم . فالعناية بالخزانات يجب أن تدخل في إطار التعاون الدولي العام لانه سيساعد على ربط الأواصر وتقريب المسافات بين الناس . فما أحوج العالم إلى الاعتناء بالفكر إعتناء بقوى الروابط الدولية وبنشر الإخاء بين البشر .

ولعل هذا الشعور بقيمة التراث لم يبق محصوراً في أعماق الذين يؤمنون به من الأفراد الذين يعرفون مردوده الايجابي على البشرية ، بل إنتقل إلى الهيئات الثقافية العالمية كهيئة الاونيسكو التي عمدت إلى مساعدة كثير من الدول في هذا المجال خصوصاً بالنسبة إلى الدول التي تحتضن بعض الخزانات القديمة أو تحتفظ ببعض النماذج الحضارية التي كان يحيا على شاكلتها الإنسان قبل الثورة الصناعية الحديثة .

ومن المعلوم أن المغرب له الحظ الأوفى في هذا الباب . فما زالت بعض مدنه القديمة زاخرة بمعطيات حضارية تدل على ما كان له من مجد وعلى ما كانت له من عناية بالفكر وملحقاته . فما شئت من مساجد عامرة ومن مدارس عتيقة ومن خزانات للكتب ما زالت معالمها خالدة إلى الآن . وإن ذلك ليدل على أن الانسان المغربي كان يعرف قيمة العلم في التطور ويعرف ما للثقافة من فضل في تنوير العقول وتهذيب الاخلاق . وهذا هو السر الذي دفع هيئة الاونيسكو إلى التفكير في إنقاذ مدينة فاس من الضياع . ولا شك أن هذا الانقاذ سيعم جميع المرافق ولا يقتصر على الجوانب المادية المحضة . ومن هذه المرافق الضرورية المخطوطات الموجودة في خزانة القرويين فهي في حاجة إلى رعاية تحميها من الاندثار لانها تحتوي على رصيد فكري ما كان لنا الحق في إهماله أو العبث به لأنه رصيد إنساني عام . ففيه مؤلفات إسلامية محضة تتعلق بالدراسات القرآنية وبالحديث والفقه وفيه دراسات علمية تتصل بالتاريخ والجغرافية والسياسة والهندسة والطب والفلاحة واللغة والادب والتصوف والوعظ والسير وغيرها وهي

لمؤلفين مختلفين ينتمون إلى جهات مختلفة . بل إننا نجد فيها بعض الكتب التي تمثل حضارات أخرى أو ديانات أخرى دون أن تجد في ذلك حرجاً .

فمن الكتب الفلسفية التي تمثل الاتجاه اليوناني نجد قسماً من كتاب الأخلاق،لارسطو تحت رقم 1972 .

كما أننا نجد من بين الكتب كتاب الانجيل (ل 40-730) وهو بخط أندلسي عتيق مكتوب بالسواك على رق الغزال وليس بمعروف زمن نسخه لضياع الورقة الأخيرة منه . وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن المهتمين بالعلم في مدينة فاس كانوا متفتحين على الثقافة الإنسانية رغم اختلاف مواردها واختلاف عقائدها . فهم لا يرون بأساً في دراسة العلوم الاجنبية أو في الاطلاع على أصول دينية أخرى ما داموا محصنين بثقافتهم ومزودين بعقيدتهم المثلى المتجلية فيما يدرسونه من أرباب الفكر الاسلامي الذين ملؤوا الخزانات بمؤلفاتهم وإنتاجاتهم . وإن اطلالة على ما في هذه الخزانة ليدل على أن الرعاية العلمية كانت محيطة بها من لدن المسؤولين المغاربة ومن لدن الهيئات الشعبية . يدل على ذلك ما على واجهات الكتب من تحبيس موقوف على هذه الخزانة من رجال الحكم ومن رجال العلم ومن كل الاتجاهات لا فرق في ذلك بين النساء والرجال .

حقيقة أن خزانة القرويين لذات شهرة في الآفاق ويتجلى ذلك فيما تتلقاه محافظتها من رسائل التقدير من مختلف الجامعات والمؤسسات الثقافية في العالم وما يفد عليها من الوفود التي تحرص على الاستفادة من كنوزها . إلا أن الحسرة تحز في نفوسنا حينما لا نجد السبل ميسرة لتلبية حاجيات الراغبين في المعرفة نظراً إلى انعدام الوسائل ولقلة الأطر العاملة في هذه الخزانة . لكن الشيء الذي يخفف هذه الحسرة من نفوسنا ويزيلها هو الاهتمام الجدي الذي أصبحت وزارة الشؤون الثقافية توليه لهذه الخزانة بتوجيه من صاحب الجلالة نصره الله . فهو يفكر التفكير العلمي في إيجاد تخطيط يمكن تطبيقه على مراحل وييسر لهذه الخزانة جميع الامكانات المادية والمعنوية ويجعلها ترى النور من جديد فلا تبقى الكتب على الرفوف قابعة ولا تظل عرضة للتلاشي والانقراض . وسيمكننا أن نصل إلى هذه الغاية بسبب التآزر الحاصل بين مختلف الهيئات العلمية والاجتماعية التي تعلم حق العلم أن لا سبيل إلى إنقاذ مدينة فاس إلا بانقاذ هذا المنهل العلمي الخالد .